حوار مع المفكّر المصريّ
الدكتور فؤاد زكريّا(٥)

* * *

للفلسفة موقعها
في حياتنا الفكريّة والثقافيّة العربيّة

س:

سيادتكم درّستم الفلسفة مدّة طويلة في جامعة عين شمس، ثمّ أصبحتم رئيسًا لقسم الفلسفة في جامعة الكويت. فالفلسفة إذًا هي جزء لا يتجزّأ من اهتماماتكم. ما هو في رأيكم وضع الفلسفة عامّة وفي العالم العربيّ خاصّة؟

د. فؤاد زكريّا:

للفلسفة في العالم كلّه، وليس في العالم العربيّ فقط، وضعان: الفلسفة الرسميّة، أي مجموعة المفكّرين الذين يصفون أنفسهم فلاسفة بالمعنى التخصّصيّ للكلمة، أو أساتذة الفلسفة، وما يتجه هؤلاء المفكّرون، ومدى تأثيرهم في المجتمع. وهناك الفلسفة بالمعنى الضمنيّ. ولا أقصد هنا الفلسفة التخصّصيّة، بل الدور الذي يقوم به الفكر الفلسفيّ، أو المنهج الفلسفيّ، في مجالات كثيرة من الحياة الفكريّة والثقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة للإنسان المعاصر. فلا بدّ هنا من التفريق بين هذين الجانبَيْن. ويجوز لي القول إنّ

---

(٥) مفكّر مصريّ. تخرّج من جامعة عين شمس، وفيها نال الدكتوراه في الفلسفة بأطروحة عنوانها مشكلة الحقيقة (١٩٥٦). درّس الفلسفة في عين شمس عدّة سنوات، ثمّ انتقل عام ١٩٧٤ إلى الكويت حيث يرئس الآن قسم الفلسفة في جامعتها. أشرف في القاهرة على تحرير مجلّتَيْ الفكر المعاصر و تراث الإنسانيّة ويشرف الآن في الكويت على إصدار سلسلة «عالم المعرفة». له العديد من الكتب بين مؤلّف ومترجَم، كما أنّه يولي اهتمامًا خاصًّا بالقضايا العامّة والشؤون الثقافيّة.

الجانب الأوّل هو في انحسار على مستوى العالم كلّه. فوضع الفلاسفة في العالم لم يعد كما كان خلال القرن التاسع عشر. لقد كان القرن التاسع عشر غنيًّا بشخصيّات كثيرة، كان لها تأثير قويّ جدًّا، وكانت كلّ شخصيّة نجمًا من نجوم المجتمع الذي تعيش فيه، حتّى لو كان الفيلسوف يعتقد بأنّه لا يلقى ما يستحقّه من الاهتمام، لأنّ الجميع كانوا يعترفون به بعد موته، ويصبح مفخرة للبلد الذي عاش فيه. لقد انحسر هذا الدور الآن. لكنّ الجانب الآخر الذي نستطيع أن نسمّيه التأثير غير المباشر في الفلسفة - أي تغلغل الأسلوب الفلسفيّ وطريقة التفكير الفلسفيّة في مختلف جوانب الحياة - هذا الجانب ازداد قوّة في عصرنا. ونستطيع أن نقول إنّ هذا الجانب قد مثّل دورًا لا يُستهان به في العالم العربيّ. لأنّ الفلسفة تتميّز بالقدرة على الرؤية الشاملة، والربط بين الظواهر التي قد لا يجد الإنسان العادي، أو حتّى العالِم المتخصّص في الميادين الأخرى، روابطَ أو علاقات بينها. فبهذا المعنى، أنا أعتقد أنّ الفلسفة قامت بدور كبير في العالم. ومَن يتأمّل، مثلاً، المفكّرين الذين يؤثّرون في التيّارات الفكريّة، في أوروبّا وأمريكا، يجد أنّ لهم صلة ما بالفلسفة، وأنّ المنهج الفلسفيّ كان له دور كبير في إعطائهم الأدوات التي تمكّنهم من تحليل الظواهر بطريقة أكثر تعمّقًا من غيرها، كما تمكّنهم من التركيب بين الظواهر لإيجاد علاقات غير ظاهرة بينها لأوّل وهلة. وهذا يساعد على فهمنا هذه الظواهر بوجه أفضل من السابق.

س:

هل تظنّون أنّ طغيان المنهج العلميّ التجريبيّ يجعل الفلسفة تخسر في عصرنا الحالي؟

د. فؤاد زكريّا:

مهما طغى المنهج العلميّ التجريبيّ، سيظلّ له ميدانه الخاصّ. فمن الصعب مثلاً أن نحلّل موقفًا سياسيًّا بواسطة المنهج العلميّ التجريبيّ. ولكن لا شكّ أنّ العلم التجريبيّ يزحف ويكتشف أراضي جديدة كلّ يوم. بهذا المعنى، يمكننا أن نتحدّث عن طغيان. ولكن هناك ميادين لا يستطيع هذا المنهج، بأيّ حال من الأحوال، أن يوفّر لنا فيها الأسلوب الصحيح والسليم لمعالجة المشكلة. وهنا يكون للفلسفة دور، وأعني الفلسفة بمعناها الواسع، وليس بمعناها التخصّصيّ الدقيق.

س:

هل يمكنكم أن تشيروا إلى أشخاص في العالم العربيّ كان لهم تأثير على المجتمع انطلاقًا من دراساتهم الفلسفيّة، أو نجحوا في أن يخلقوا تيّارًا فلسفيًا عربيًا؟

د. فؤاد زكريّا:

طبعًا، في العالم العربيّ مجموعة من الأسماء لها دور فلسفيّ جيّد. ففي مصر هناك الدكتور زكي نجيب محمود، وفي المغرب محمّد عابد الجابري، وفي سورية مجموعة كبيرة مثل صادق العظم وغيره. وفي لبنان عدد أكبر. فشارل مالك نفسه كان فيلسوفًا، ولدينا رضوان السيِّد ومُطاع الصفدي وآخرون. هذا يدلّ على وجود شخصيّات كثيرة في العالم العربيّ لها علاقة مباشرة بالفلسفة. ونضيف إلى مَن ذكرت حسن حنفي ومراد وهبة وإبراهيم مدكور وناصيف نصّار وغيرهم. لكن الفكرة هي أنّ عددًا كبيرًا من المتخصّصين في الميادين الأخرى يستعينون كثيرًا بالفلسفة في أبحاثهم ويعتبرون ذلك من مواضع فخرهم، إذ يستشيرون الفلاسفة ويطعّمون أبحاثهم بأفكار فلسفيّة حتّى إنّه يصعب في بعض الأحيان التميز بين المتخصّصين وغير المتخصّصين. ففي النقد الأدبيّ مثلاً جابر عصفور وعزّ الدين إسماعيل وعبد المنعم تكّيمة وأمثالهم يعبّرون عن الكثير من الأفكار الفلسفيّة في كتاباتهم، وهم فخورون بذلك، ويحاولون الاقتراب باستمرار من الفلسفة. وينطبق الشيء نفسه على المؤرّخين، وحتّى على العلماء، فيقتبس كثير منهم عن الفلاسفة، ويقرأونهم قراءة جيِّدة ويستوعبونهم. وهذا ما يدلّ على أنّ الفلسفة لا تؤثّر في أرضها الخاصّة وحسب، بل في أرض الآخرين، أرض التخصّصات الأخرى. وأنا لا أوافق إطلاقًا على المقولة التي تدّعي أنّ الفلسفة تتراجع في عصرنا.

س:

هل يمكن أن نقول إنّ هناك تيّارًا فلسفيًا عربيًا أصيلاً، وليس مجرّد اقتباس أو تأثّر بالمذاهب الوجوديّة أو الماركسيّة أو العقلانيّة الغربيّة؟ وهل يمكن أن نقول إنّ لدينا تيّارًا فكريًا تولّد تحت تأثير الاحتكاك بالفلسفة الغربيّة؟

د. فؤاد زكريّا:

هذا السؤال مطروح دومًا: هل لدينا فلسفة عربيّة؟ وأوّل ردّ أسوقه على هذا السؤال هو: لماذا لا توجّهون السؤال نفسه إلى الكيمياء وتقولون: هل لدنيا كيمياء عربيّة؟ أو للطبّ الباطنيّ، ونسأل هل عندنا طبٌّ باطنيّ عربيّ؟ لماذا نتّهم الفلاسفة دائمًا أبدًا؟ على العموم إنّه من الواضح أنّ المرحلة الحاليّة من ثقافتنا بشكل عامّ هي مرلة انحسار، وبدون شكّ، منذ فترة، مقارنةً بالتقدّم العلميّ الذي حصل في البلاد الغربيّة، نحن متأخّرون. هذه ظاهرة، ولا مفرّ من الإقرار بها. وهذا لا يعيبنا كثيرًا، لأنّ ظروفًا معقّدة جدًّا أدّت إلى أن يسبقنا الغرب في كثير من الميادين: كالتكنولوجية، ومجموعة العلوم الطبيعيّة والإنسانيّة... إلخ. هذه العلوم هي جزء من تطوّر حضاريّ عامّ. والفلسفة ليست جزيرة منعزلة. إنّها تخضع لما تخضع له الحضارة التي تنتمي إليها. هذا أوّلاً. الأمر الثاني، يمكن أن نقول إنّ الردّ على هذا السؤال مستمدّ من الذي قلته في البداية، وهو أنّه علينا أن نميّز بين تأثير الفلسفة التخصّصيّة، وبين الفلسفة كمنهج للفكر. فلو أخذنا الفلسفة كمنهج للفكر، أعتقد بأنّها فاعلة في بلادنا. فكثير من المشتغلين بالفلسفة، مثل لويس عوض، كان ينمّي بعض أفكاره الفلسفيّة، ونجيب محفوظ لا تفهم أعماله الأدبيّة فهمًا كاملاً إلاّ في ضوء الخلفيّة الفلسفيّة، أي الفلسفة الفكريّة التي تربّى عليها. فإذا أخذنا المسألة بهذا المعنى الأوسع، نجد أنّ الفلسفة قد تركت أثرًا في المجتمع العربيّ. وكما قلت، لا يمكن أن نقول إنّ لدينا نظريّات تخصّصيّة. أعتقد أنّ وجود نظريّات من هذا النوع، أو عدم وجودها، يرجع إلى حالة معيّنة خاصّة جدًّا. فعصر النظريّات الكبرى كان في أوروبّا والغرب نفسه في فترة من الفترات. أمّا الآن فإنّ هذه المجتمعات نفسها قد تراجعت، لا بسبب التأخّر، بل ربّما لأنّ العصر اليوم لم يعُدْ يحتاج إلى هذا النوع من المذهب الشامل الذي يقدّمه الفكر. وتنطبق هذه المسألة بصورة أوضح على بلادنا العربيّة ومصر بالذات. فنوع المعارك التي يخوضها الناس الآن هو من نوع مختلف، أي هي معارك البقاء والحياة، الحياة أو الموت، أو أشياء من هذا النوع. ويمكن في مثل هذا الجوّ أن يصبح تكوين المذهب الفلسفيّ الشامل نوعًا من الترف لا يملكه المجتمع أو لا يستطيع السعي إليه. لذلك نجد أنّ الفلاسفة أنفسهم، أو أصحاب المذهب الفلسفيّ في أيّ

تخصص، يوظّفون فكرهم حول هذه مشكلات [illegible] في السنة الأخيرة معركة فكريّة ضخمة جدًّا في العالم العربيّ شاركت فيها كبار الشخصيّات، من فلاسفة وغير فلاسفة، لتحديد موقفنا من الديمقراطيّة مثلاً لمناسبة عمليّة غزو الكويت التي قام بها صدّام حسين. لقد أثيرت قضيّة من هذا النوع؛ ولا يمكن ان نقول عنها إنّها قضيّة فلسفيّة كتلك التي أثارها هيجل أو شوبنهور، ولكنّها في الوقت نفسه قضيّة فكريّة تنتمي إلى صميم احتياجاتنا في هذا الزمن.

س:

هل يمكننا أن نقول إنّ الدكتور فؤاد زكريّا هو صاحب مدرسة في العالم العربيّ وفي مصر؟ وإذا كانت هذه المدرسة قائمة فما هو اتّجاهها؟

د. فؤاد زكريّا:

ما يحصل الآن، هو أنّ هناك أناسًا أصحاب تأثير؛ ولكن يندر أن تجد أي مفكّر أو أستاذ صاحب مدرسة بمعنى كلمة مدرسة. يمكن بعض الناس أن يتركوا أثرًا معيّنًا، ويحاول البعض الآخر أن يقتبس منه الكثير أو أن يسير في اتّجاه يتصوّر أنّه مشابه للاتّجاه الذي اخذه. لكنّ المدرسة الفكريّة ليست موجودة في حياتنا الثقافيّة المعاصرة. وهذا لا ينطبق على فؤاد زكريّا وحده، بل هي ظاهرة عامّة. فحتّى العقّاد، مثلاً، وهو شخصيّة من الشخصيّات الكبرى، لم يكوّن له مدرسة وكان أحقّ الناس في ذلك، لأنّه كان يقيم اجتماعات منتظمة جدًّا، ـ مرّة كلّ أسبوع ـ يحضرها عشرات وربّما مئات من التلاميذ المخلصين جدًّا له، ويدينون بالولاء الشديد لأفكاره، ويقرأون كلّ حرف يكتبه. لكنّنا حين نفكّر، لا نجد أنّ العقّاد قد ترك مدرسة فكريّة بالمعنى الحقيقيّ. وأنا أعني بالمدرسة الخلفاء المفكّرين: لا أن يقتدوا به، لأنّه من الخطأ ان نقول إنّ هؤلاء يسايرونه أو يقتدون به بشكل كامل، وإنّما أن يأخذه هؤلاء الخلفاء المفكّرون كمنطلق، وكلّ واحد يتجاوزه في نواح معيّنة من الأفكار أو يكمّل الجوانب ذاتها، وهذا غير موجود. لا شكّ أنّ هناك مجموعة كبيرة جدًّا حتّى من بين المعاصرين، يدينون بالولاء الشديد للعقّاد، ويذكرونه بشوق وبشكل من أشكال التقديس، ولكنّهم لا يكوّنون مدرسة. فمعظمهم أتباع في منتهى الضعف، وهو بالنسبة إليهم، الإله المعلّم المسيطر... ولو قلنا إنّهم تلاميذ

بالمعنى الناضج، فهذا غير صحيح. ولا أظنّ أنّ الملام على هذا الأمر هو المفكّر نفسه، بل الجمهور والتلاميذ والجوّ الثقافيّ الذي، هم جزء منه. الخطّ البيانيّ للثقافة في بلادنا هو في انحدار منذ أوّل القرن العشرين. وفي أيّ مجتمع يكون فيه الخطّ البيانيّ للثقافة منحدرًا بهذا الشكل، يصعب معه تكوين مدرسة فلسفيّة، وكأنّ الخطّ يجب أن يكون مستقيمًا أو صاعدًا حتّى يكون للمدرسة معنى. ففي بلادنا العربيّة كلّ شخصيّة تختفي نترحّم عليها ونؤكّد أنّها لن تعوّض، فيكون هناك إعجاب وتعبّد لها، دون أن نقتدي بمنهجها، لأنّ الظروف نفسها، لا تسمح بتكرار ظهورها، أو بتجاوزها على يد من تأثّروا بها.

س:

هذا يصل بنا إلى السؤال الهامّ: ما هي القاعدة والأدوات اللازمة للمفكّر العربيّ حتّى يخلق فلسفة عربيّة؟

د. فؤاد زكريّا:

أنا لا أتصوّر أنّ المسألة يمكن أن تُعالَج على مستوى الفلسفة وحدها، بل على مستوى الثقافة العامّة للمجتمع، لأنّ الفلسفة هي تتويج لهذه الثقافة العامّة. الفلسفة تستوعب كلّ جوانب الثقافة في رؤية واحدة، نظرة بانوراميّة شاملة. فمن الصعب أن أعطي وصفة تضمن نجاح الفلسفة في تحقيق هذا الهدف، في الوقت الذي يكون فيه المجتمع متدهورًا ثقافيًّا وعلميًّا وتعليميًّا... فمدرّسو الفلسفة اليوم يجمعون فكرة من هنا وأخرى من هناك ويؤلّفون بحثًا أو كتابًا ويكوّنون تلامذةً على هذا النمط لنيل شهادات الدكتوراه. فكيف يمكنني أن أعطي، في هذا الجوّ الثقافيّ العامّ، وصفة للفلسفة، لكي تظهر بنفسها؟

س:

منذ زمن بعيد والحداثة تُطرح كمشكلة. فما هي أسباب الفشل؟ ذلك بأنّنا مع كلّ جيل جديد نصعد إلى فوق ثمّ نتدهور فنعود كما كنّا! لماذا كُتب علينا هذا التدهور؟ لماذا تظهر أمور مضيئة في الوطن العربيّ ثمّ تختفي، ونعود إلى طرح أمور ظننّا أنّها قد حُسمت سابقًا؟

د. فؤاد زكريا

اظنّ أنّ مفهوم الحداثة ذاته قد أُسيء فهمه كثيرًا في العالم العربيّ. ويمكن أن نقول إنّ سمعته قد شُوّهت. لأنّ هناك تيّارًا فكريًا كاملاً يقول إنّ الحداثة هي الاقتداء بالغرب. والحداثة بهذا المعنى، هي نوع من تشوُّه ثقافيّ لأيّ مجتمع من المجتمعات، ونوع من التقليد، والخروج عن الهويّة الأصليّة، والتنكُّر للذات الحقيقيّ... وبالفعل، تجد أنّ هناك كتابات في مختلف الميادين، منها الميدان الاجتماعيّ والاقتصاديّ، وعدد كبير من الاقتصاديّين يتكلّمون عن الحداثة بمعنى أن تضع التقدُّم الغربيّ كنموذج لك، وتحاول أن تلحق به. ففي هذه الحالة نكون قد شوّهنا حياتنا وفكرنا وكياننا. أنا أعتقد بأنّ هذا النوع من التعريف ليس ضروريًا أو أساسيًا، وليس جزءًا من ماهيّة الحداثة. الحداثة ببساطة، هي أن تعيش مع تيّار الصفّ الأوّل، مع تيّار التقدُّم أينما وُجد. ولذلك يجب أن يؤدّي وجود اليابان إلى مراجعة كلّ هذه الأفكار على المدى الطويل. لأنّ اليابان اليوم هي حداثة بأحسن معاني هذه الكلمة. وليس هذا خطأً. فحين تحاول أن تتّخذ من اليابان نموذجًا، لن تكون لاحقًا بالغرب، لأنّ اليابان هي من صميم الشرق. وفي شرق آسيا هناك أيضًا مجموعة من الدول التي ستصبح، عاجلاً أم آجلاً، نظائر لفرنسا وإنجلترا وأمريكا وألمانيا وغيرها من الدول المتقدّمة، لا تقلّ عنها قوّة. يجب أن تأخذ حداثتك، أو جزءًا منها، من هؤلاء الناس. فالفكرة، أنّ في كلّ عصر من العصور، تشكّل مجموعة من المجتمعات الصفّ الأوّل في التقدُّم الصناعيّ أو في أيّ مجال آخر. وعندما نقول هنا إنّ الحداثة مهمّة، نعني أنّه يجب أن نضع لأنفسنا هذا المبدأ حتّى نجد مكانًا في هذه الطليعة. علينا أن نوجّه أنظارنا إلى حيث يكون التقدُّم في أعلى مظاهره. لو فُهمت الحداثة بهذا المعنى، لاتّضح لنا أنّ الحداثة ليست انسحاقًا أمام الغرب، وفَقْدنا لهويّتنا، وتقليدًا أعمى... خصوصًا أنّ اليابان كانت في وقت من الأوقات مقلّدة. وكان كلّ امتيازها في القدرة البارعة على التقليد. والآن، العالم كلّه يقلّدها. فيجب أن نعيد النظر في مفهوم كلمة حداثة، ونزيل عنها التشويه الذي لحق بها نتيجة الربط المتعسّف بينها وبين أنظمة الغرب.

س:

هناك مَن يفسّر سبب التطرّف يمينًا أو يسارًا على أنّه سبب اقتصاديّ، فما رأي سيادتكم؟

د. فؤاد زكريّا:

التفسير الاقتصاديّ هو عامل من العوامل لا يمكن تجاهله. ولكن التفسير الاقتصاديّ في حدّ ذاته لا يكفي لتعليل هذه الظاهرة. والدليل على ذلك، أنّه في مجتمعنا المصريّ، في أوّل السبعينات، وقبل ظهور هذه الموجة بشكل واضح، كانت المتاعب الاقتصاديّة ذاتها تؤدّي إلى أشكال أخرى من العمل السياسيّ غير التطرّف الدينيّ. أي أنّها كانت تولّد شيوعيّين أو ناصريّين... إلخ وسبب ظهور هذه التيّارات كانت المتاعب الاقتصاديّة أيضًا. وهؤلاء كانوا يفكّرون في علاج لهذه المتاعب، أو لديهم نماذج لعلاج هذه المتاعب. فما الذي جعل المشاكل الاقتصاديّة تتّخذ هذا الشكل بالذات في أواسط السبعينات؟ وما الذي جعل الناس يلجأون إلى التطرّف الدينيّ، بالرغم من أنّ التطرّف، لو نجح في حلّ بعض هذه المشاكل ـ وأنا أشكّ في ذلك ـ لا يستطيع حلّ مشكلة الحكم. لأنّه ليس لديهم أيّ فكر من أيّ نوع كان في هذا الميدان. ومع ذلك يرمي الناس بمصائرهم تحت أقدام المتطرّفين حتّى في الميدان الاقتصاديّ. هناك إذن عوامل أخرى لا بدّ من أن تؤخذ بعين الاعتبار. أنا شخصيًّا أقول إنّ البداية كانت في أواسط السبعينات، مع تزايد النفوذ السعوديّ في العالم العربيّ كلّه، وتزايد الأموال في يد السعوديّة بعد ارتفاع أسعار البترول، وقدرتها على تحريك جماعات وتمويلها بكفاية شديدة في مختلف بلاد العالم. ولا أستبعد أن يكون وراء هذه العمليّة أيادٍ أمريكيّة أو غير أمريكيّة كانت تتضافر مع السعوديّة في ذلك الحين. طبعًا الوضع يختلف الآن لأنّ المسألة فلتت من أصلها، تمرّدت على الأصل الذي أتت منه. لأنّ المتطرّفين شعروا بقوّتهم، وشعروا بأنّهم يمكنهم أن يفطموا ويتركوا الأمّ الحنون التي كانت ترعاهم مادّيًّا ومعنويًّا.

س:

ما هو تأثير حرب الخليج على الفكر في الوطن العربيّ والسياسات؟

د. فؤاد زكريّا:

على صعيد الحكومات، صارت تتحرّك بشكل علنيّ، ما كان يعمل في السرّ صار علنًا. لقد سقطت الأقنعة ولم تعد الحكومات تخجل من القول إنّ هؤلاء هم أصدقائي، وهؤلاء هم أعدائي. أمّا على صعيد الشعب، فأنا أرى أنّ حرب الخليج لم تقدّم لنا دروسًا بل مجموعة من المرارات، قدّمت الإحساس بخيبة الأمل الشديدة، فأدركنا أنّه كانت هناك أفكار لدينا، ولم تكن هذه الأفكار إلاّ خيالاً وتحليقًا في السماء. فعندما اختُبرت هذه الأفكار على أرض الواقع، تبيّن أنّها جوفاء، ولم تصمد وانقلبت إلى عكسها، بمنتهى السهولة. كلّ الأفكار المتعلّقة بالعروبة، والتضامن، والكفاح الشعبيّ، وحتّى الديمقراطيّة، كلّ هذا سقط. وسقط على المستوى الشعبيّ العاديّ وليس على مستوى الحكومات. فعندما نرى أنّ أكثر من نصف الشعب العربيّ يخرج في مظاهرات حماسيّة، ويصفّق لصدّام حسين، نكتشف أنّ كلّ التكوين السياسيّ، الذي كنّا نتصوّر أنّنا اكتسبناه، كان زائفًا وباطلاً. وكأنّنا نعود إلى البداية، من نقطة الصفر، فقد أثبت الوعي السياسيّ العربيّ قصورًا فاضحًا. ولم يحاول أحد حتّى الآن، أن يعترف بخطئه، أو يتنازل عن أيّ موقف أخذه خلال الأزمة.

س:

كيف ترى سيادتكم مستقبل العالم مع التغيّرات التي حدثت في الاتّحاد السوفياتيّ. وما هو وضعنا كعالم ثالث على الخريطة الدوليّة؟

د. فؤاد زكريّا:

أنا ضدّ مسألة الهيمنة الأمريكيّة، وللعالم الآن قطب واحد. أنا أعتقد أنّ هذا تفكير مبنيّ على ما هو حاصل في لحظة معيّنة. ولكن على المدى الطويل، ستكون هناك أقطاب متعدّدة. وفكرة التطوّرات الأخيرة هي إزالة تأثير الجانب العسكريّ. أي لن يكون للقوّة العسكريّة، من الآن فصاعدًا، الدور المهمّ. أو لن تؤكّد القوّة العسكريّة أهمّيّة دولة من الدول. فإذا قبلنا أنّ نوع السيطرة في المستقبل سيكون ذا طابع علميّ أو تكنولوجيّ أو اقتصاديّ، علينا أن نعترف أنّه كلّما تقدّم الوقت، سيبرز منافسون جُدد في أوروبّا الموحّدة، وآسيا واليابان. لن يبقى هؤلاء في مكانهم. فعلينا إذًا أن نزيل مفهوم القطب الواحد على المدى

الطويل، لأنّ هذا المفهوم مستمدّ من مبادئ الحرب الباردة حين كان هناك تنافس بين اثنين، ومصارعة وملاكمة مستمرّة بين الاثنين، وأنا أعتقد أنّه لدينا ما يمكننا كعرب من تمكين أنفسنا. وتعود القضيّة إلى قضيّة حكومات لا تريد ذلك.

س:

في نظر سيادتكم، ما هي المشاكل الرئيسيّة التي تواجهنا في مصر والتي يجب أن نعالجها؟

د. فؤاد زكريّا:

المشكلة الرئيسيّة لدى مصر المعاصرة الآن هي مشكلة انعدام استقلال الإرادة المصريّة. كانت هذه المشكلة موجودة. ولكنّه إذا انعدم استقلال الإرادة في ظلّ احتلال أجنبيّ، فإنّ لهذا الواقع ما يبرّره. المشكلة الحقيقيّة تكمن في المرحلة التي يكون فيها انعدام استقلال الإرادة نابعًا منّا نحن وليس مفروضًا علينا من قوّة خارجيّة. من أهمّ أسباب فقداننا لهذه الإرادة، حالة الاعتماد الاقتصاديّ الكلّيّ على الآخرين: لا نستطيع أن ننتج ما يكفينا. يوجد اعتماد اقتصاديّ ملحوظ على الخارج، وهذا ينعكس على سلوكنا الرسميّ في كافّة الميادين. فلا ننتج بالقدر الذي يكفي احتياجنا، وفي الوقت نفسه، لدينا زيادة سكّانيّة. ليست الزيادة السكّانيّة مشكلة في حدّ ذاتها. المشكلة هي حين ننظر دائمًا إلى الزيادة السكّانيّة على أنّها جمل «مليون كلّ ٩ شهور» «حا نوكّلهم منين». هذا التعبير في حدّ ذاته علامة من علامات الفشل. فعدم وجود مشروع حقيقيّ للتنمية في البلاد يعني أنّ هذه العقليّة تنظر إلى كلّ مولود جديد على أنّه «فم يأكل» وليس على أنّه «يد تعمل». فيترتّب على ذلك أن نستورد باستمرار أكثر من السابق، ونزيد من ديوننا. وينعكس ذلك سلبيًّا على قطاع التعليم. فهناك تكدّس في المدارس والجامعات وليست هناك طريقة لترشيد التعليم حتّى يحافظ على مستوى جيّد مع وجود هذه الزيادة الكمّيّة في عدد المتعلّمين. فمنذ أوائل الخمسينات، عندما تزايد الكمّ في الطلبة، حدث تراجع كيفيّ، باستثناء بعض الأماكن.

ومن المشكلات الخطيرة أيضًا، الموجودة في مصر الآن، ذات الطابع

التنموي، هو انتفاء مبدأ مراعاة المصلحة العامة، الذي يجعلني أتجاوز، كفرد، مصلحتي الشخصيّة المباشرة، ومصلحة عائلتي، لأوجّه جزءًا من طاقتي لأجل المصلحة العامّة. هذا المبدأ يكاد أن يختفي في مصر.

س:

في ختام هذا اللقاء المفيد والغنيّ، نتوجّه إلى سيادتكم بآخر سؤال. د. فؤاد يريد أن يوجّه نصيحة للشباب المثقّف. ماذا يقول؟

د. فؤاد زكريّا:

أعتقد بأنّ الشباب اليوم في محنة، وأنّ ظروفه أصعب من ظروفنا بكثير. فالشباب يواجه مشاكل لم نواجهها نحن في جيلنا على الإطلاق: مشاكل اقتصاديّة، واجتماعيّة... إلخ. ولكن، ما يهمّني في الأمر، هو الناحية الثقافيّة. فتكويننا العلميّ كان مختلفًا، لأنّه كان يسمح لنا بتطوير أنفسنا على نحو متواصل. وهذا لا يتوفّر لمعظم أفراد الجيل الحالي. ما أريد قوله لشبابنا، - مع إقراري بصعوبة الظروف التي يعيشونها - هو أنّ تقدّمهم الشخصيّ صار كالنحت في الصخر. ولكن لا يصحّ، لأيّ حال من الأحوال، أن يتوقّفوا، أي لا بدّ أن يبذلوا الجهد المضاعف ليفهموا هذا العالم، وما يحدث حولهم. أمّا مسألة الاكتفاء بقشور ثقافيّة، فهذا حرام وأنا أعتبره جريمة. لأنّ الغالبيّة العظمى من الشباب تعيش الآن على بعض الترجمات التي تصدر هنا وهناك وخصوصًا في لبنان، إذ إنّ ترجمات لبنان هي جرائم أكثر منها ترجمات. فلا بدّ أن يبذل الشباب جهودًا للعودة إلى المنابع الأصليّة للثقافة. وكلمة المنابع الأصليّة للثقافة هنا مهمّة جدًّا. وبقدر الإمكان، أن يتخلّصوا من الثقافة السطحيّة الموجودة حولهم في كلّ مكان.

...

(حاوره الأب وليم سيدهم والأخ سامي حلاّق اليسوعيّان)[٥]

---

(٥) الأب وليم سيدهم مربٍّ يدرّس الفلسفة في ثانويّة اليسوعيّين بالقاهرة واللاهوت في معهد الدراسات اللاهوتيّة بالسكاكيني (القاهرة). - الأخ سامي حلاّق دارس في الرهبانيّة اليسوعيّة، مهندس ميكانيكيّ ومجاز في الفلسفة واللاهوت.

صدر حديثًا عن «دار المشرق»